قصة

في نقطة تفتيش حدودية قرب البصرة

الذئب الذي يلاحقنا

حسن أكرم

بقامة طويلة ولطخة الصلع التي تتوسّط رأسه وبشوارب المسلّحين دخل عليّ لأول مرة، العميد المتقاعد سلطان، الذي لم يترك لي فرصة تخمين مهنته، فقد عرّف عن نفسه في لقائه الأول بي، كأنه يذكّر نفسه بمهنته. في الأيام الأولى، كنتُ أقضي معه وقتاً طويلاً لأقدّم له الكثير من الاقتراحات، فقد فكرت أنه بالنسبة إلى عمله السابق ربما يكون مهتماً بالسياسة وكُتب المذكرات الشخصية، أو لعله يحب قصص التجسّس العالمية وحروب المعلومات. ومن معرفتي الأولى به خمّنتُ أنه قد خرج إلى التقاعد منذُ وقت بعيد، وأنه مثل غيره يواجه فراغاً كبيراً يكاد يبتلعه. وعلى الرغم من أني طوال حياتي أخطط أن أتقاعد مبكراً، إلا أنني بعد أن تعرّفت على سلطان أزحتُ هذه الفكرة من رأسي. يُخيّل لي أن الإنسان يفقد هويته عندما يخسر أمرين: مكانه في العمل وسريره الذي ينام فيه. استغرقتُ وقتاً طويلاً حتى فهمت أن سلطان ليست له خيارات ضابط متقاعد عادي، بل إنه كان يبحث عن شيء غريب جداً، فقد قال لي وكأنه يخبرني سرّاً: «إنني وبصراحة أريد منك أن تجمع لي أيّ كتاب يذكر فيه اسم الذئب، بغض النظر عن نوع الفئة التي ينتمي إليها».

وعلى الرغم من أنه كان يستمتع بإهدار الوقت عندي في المكتبة، فإنه تخلّى عن أداء دور الباحث الذي يرمق الرفوف ببطء كأنه يبحث عن شيء هو وحده الذي يعرفه (مثلما يفعل مجايلوه من المتقاعدين). فبعد أن تعرّفت على نواياه لم يعد لذلك معنى. صرنا نُهدر الوقت في شرب الشاي والحديث عن المستجدات اليومية، ثم ننتهي بعرض الكتب التي جمعتُها له على مدار الأسبوع الفائت، يدفع ثمنها ويوصي مرافقه بحملها ويودّعني بابتسامة عريضة. كنت أحاول أن أختار قصة سهلة لتفسير تلك الرغبة، رغبته بجمع هذا النوع من الكتب، إلا أنني لم أصل إلى تفسير مُرضٍ. فبعد أن عرفت لمحة عن تاريخ العميد، وهو الذي أوكلت إليه قيادة «اللواء الذئب» ويُشاع أنه هو من أطلق هذا الاسم على اللواء، صرتُ أواجه حرباً فضولية مع نفسي، تدفعني للبحث عن إجابات شافية حول رغباته تلك، خصوصاً بعد إصراره على أن يشتري كتباً ذات قيمة متدنية وأقرب إلى السخيفة، فقط لأنها تحمل في عناوينها الرئيسية أو الفرعية اسم الذئب. هذا ما جعلني أدخل في حيرة كبيرة، صرت أتحدث مع نفسي: «ما لهذا الزبون يشتري كل شيء دون أن يتصفّحه حتى»؟

أيّ كتاب فيه ذئب، حتى أنه اشترى مني قصة «ليلى والذئب» نفسها، دون أن يترك لأحد تفسير لماذا يحتاج ضابط متقاعد في الجيش قصة «ليلى والذئب»؟

سلّمته آخر دفعة من كتب الذئاب، والتي كانت على هذا النحو «ذئب البراري»، «رمز الذئب»، «الذئب في الأدب القديم»، وحتى «دمعة الذئب»، والتي يبدو أنها رواية سخيفة على الأغلب. وللحظة خشيت أن تنتهي قصتي مع سلطان، الرجل الذي شارف على الموت فعلاً، دون أن أعرف لغز الذئب هذا. ولأنني لم أجرؤ على طرح هذا السؤال، سعيت لأن أتودّد لمرافقه الشخصي، والذي لم يتفاجأ في البدء من ملاطفتي الواضحة، إذ يبدو أنّ احتياجي له ظهر على ملامحي، فرمقني بنظرة تفيد بأنه فهمني من الوهلة الأولى، لذا ولأنني لا أريد أن أخيّب ظنه أبداً، طلبتُ منه أن نلتقي على انفراد، فوافق على الفور. ولسوء حظي، كان الرجلُ ذكياً وماحاً، فما إن جلست بقربه وشرعت أحدّثه، حتى فاجأني بقوله: «ستعطيني مئة دولار على أيّ سؤال يخص حياة العميد سلطان». ولأني شعرت أن ثقته ليست آتية كحول بل «عرق عراقي فل»، والذي يكون تركيز الكحول فيه أكثر من ثلاثة أضعاف أي مشروب كحولي آخر، ولا يمكنني أن نتخيّل أيّ معدة أخرى قادرة على احتمال ذلك غير المعدة العراقية. كان سلطان نفسه يختزن عشر صناديق من هذا العرق لكل شهر من الحراسة، ويُحكى أنه في يوم ما استقبل ضيوفاً جدداً في سهرته المعتادة، كانوا مهندسين قادمين للتو من فرنسا للعمل في الحقل القريب من الثكنة، حيث لم يتجاوز عمر الواحد منهم خمسة وعشرين ربيعاً، ولنفترض - أنا وأنت - أنّ الملل نفسه الذي حوّل الجنود إلى مدمنين قاد الشابّين إلى ثكنة سلطان، الذي رغب بأن يعرّف الفرنسيين على ثقافة البلد وكرم أصحابه، حيث استبدل لهما زجاجتي النبيذ اللتين كانتا بين أيديهما بصندوق من العرق.

فرح الفرنسيان بالصفقة، وحملا الصندوق وتركا الثكنة بعد أن وَدّعا سلطان بابتسامة وانحناءة صغيرة. وفي اليوم التالي وصلت إلى الثكنة برقية تفيد بأن هناك مهندسين فرنسيين اختفيا، فذهب سلطان ليبحث عنهما في الصحراء حتى عثر على كومة من العظام مع بقايا من اللحم، عاد ومعه عظام الشابين اللذين أكلهما الذئب، وقد يكون الذئب بريئاً من موتهما؛ إذ يُحتمل أن معدتيهما انفجرتا بسبب العرق وماتا قبل أن يُجهز عليهما الذئب بعد ذلك.

أعتقد أنّ ذئب قتل شابين بحركة كرم غير محسوبة لم يغادره، وقد لاحقه هذا الذئب منذ الحادثة، وكل ما يتصرف به الآن يفسّر أنه يريد أن يقترب من الذئب ليبتعد عن ذنبه وصوت ضميره الذي يطارده، أو ربما يفكر في أن يواجه هذا الكابوس بدل أن يهرب منه مثلما فعل طوال حياته.

نهض من الكرسيّ بعد أن وضع الورقة النقدية في جيبه، ثم سحب قميصه للأسفل وأظهر طرفي باقته إلى الأمام كأنه يعيدها لانتصابها الأول. وقبل أن يهم بالمغادرة، نظر إليّ بطرف عينه ثم قال: «لم أجد أكثر سذاجة من بائعي الكتب... فضوليون وبلهاء، تصوّر أنك الزبون الخامس الذي يشتري مني هذه القصة. ما أسهل أن تقص قصة واحدة كل يوم وتحصل على هذا المبلغ المحترم». ثم غادرني وهو يضحك.

بطاقة

كاتب عراقي من مواليد مدينة البصرة عام 1993 ويقيم في بغداد. حصل على شهادة البكالوريوس في علوم الحياة من جامعة القادسية في العراق، قبل أن يتجه إلى العمل في مجال النشر وصناعة الكتاب. صدرت روايته الأولى «خطّة لإنقاذ العالم» عن «مؤسسة دار الرافدين» في بغداد. كما نشر مجموعة من القصص القصيرة في صحف ومجلات عربية، وقد حاز منحة «الصندوق العربي- أفاق» عام 2020 عن مجموعة قصصية ستصدر عام 2021 بعنوان «كتاب الكوابيس».

سمير رافع، الواح زيتية على قماش، 1974

استعادة

المترجم ممتلكاً زمام اللغة والمعنى

ذاكرة لعادل زعيتر

رغم جهوده في إغناء المكتبة العربية، بمراجع في الفلسفة والحضارة والتاريخ، لم تؤطر أعمال المترجم الفلسطيني ضمن مشروع متكامل

منصور الجميل

في مرحلة شهدت مخاضاً عسيراً بين انهيار الدولة العثمانية وتقاسم بلاد الشام بين الإنكليز والفرنسيين واحتلالها، كان عادل زعيتر أحد أركان النخبة المتعلّمة التي آمنت بحق العرب في نيل استقلالهم ضمن دولة حديثة، وكان قد مثّل مدينته نابلس في «المؤتمر السوري العربي» الذي عقد عام 1920 لتأييد هذا الحق.

أسّست تلك الأحداث وعي السياسي والمترجم الفلسطيني (1897 – 1957) الذي تعلّم التركية والألمانية والإنكليزية والفرنسية، وربما شكّلت الأخيرة عاملاً أساسياً وراء دراسته الحقوق في باريس لاحقاً، وساهمت في اختياره لأبرز مؤلّفات الفلسفة والتاريخ والحضارة لينقلها عن الفرنسية، لاعتقاده بأهمية العلم والأدب في تحقيق النهضة المنشودة.

هذا العام، صدرت طبعة جديدة من ترجمته كتاب «حياة الحقائق» للمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون عن «دار الرافدين»، وهو واحد من حوالي أربعين كتاباً ترجمها الراحل وصدرت في طبعات مختلفة عن أكثر من دار نشر عربية، أغفل معظمها ذكر تاريخ الطبعات وحقوق ملكيتها الفكرية، بل ظهرت ترجمته لكتاب «تاريخ العرب العام» للمستشرق الفرنسي ل. أ. سيديو عام 2002 باسم مترجم آخر! وهي ليست حالة السطو الوحيدة على ترجمات زعيتر.

يدرس «حياة الحقائق» مكوّنات المعتقدات الدينية والعاطفية والجمعية، وكيفية تتحوّل المعتقدات الفردية إلى جمعية، والأخلاق باعتبارها العنصر الرئيس في تكوين المعتقدات الدينية، إضافة إلى الحياة العقلية التي تشكل جذور العلم؛ وأسس التفكير الفلسفي والوصول إلى منابع الحقيقة العميقة.

لم يلقَ زعيتر الذي تفرّغ للترجمة منذ عام 1946 وحتى رحيله، اهتماماً يضع ترجماته ضمن مشروع متكامل حيث توضّح الملاحظات التي بثّها في مراسلاته ومقالاته العديد من آرائه في الترجمة ومنهجيته التي اعتمدها، والمضامين التي قدّمها إلى المكتبة العربية، كما تربط بين سيرته كشخصية منتمية إلى فضائها العربي وبين خياراته في النقول. وعبّرت ترجماته عن الفرنسية، والقليل منها عن الألمانية، عن سعة اطلاعه في حقول معرفية متعدّدة وفلسفته التي قامت على أهمية نقل الفكر الغربي الحديث في لحظة هيمنت فيها القوى الاستعمارية على العالم العربي، وأفشلت جهود استقلاله وتحديث مجتمعاته.

في مقدمة ترجمته لكتاب «حضارة العرب» لـ غوستاف لوبون أيضاً، يدوّن زعيتر «هكذا أكون قد أدخلت كتب لوبون المهمة الآخذ بعضها برقاب بعض إلى العربية إدخالاً يخيّل إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب، ولا عجب، فلوبون واضع سفر «حضارة العرب».

يقول يحيى جبر وعبير أحمد في بحثهما المشترك: «كان لسعة ثقافته لا يترجم وحسب، وإنما كان يبدي رأيه مؤيداً أو معارضاً بين حين وآخر، فجاءت مترجماته حافلة بآرائه النقدية وبتعليقاته وتصويباته»، ويضيفان: «كيف كان زعيتر يختار المادة التي يزمع ترجمتها؟ وكيف كانت تتم الترجمة؟ يجيب شقيقه التربوي والسياسي أكرم: كان عادل في اختياره كتاباً للترجمة يُعنى بأن يكون مما تحتاج إليه الأمة العربية، وألا يكون له نظير في لغتها...». من المؤلّفات التي ترجمها زعيتر:

> عبّرت ترجماته عن سعة اطلاعه في حقول معرفية متعدّدة

«العقد الاجتماعي» و«التربية» و«أصل التفاوت بين الناس» لـ جان جاك روسو، و«الحياة والحب» و«البحر المتوسط» و«كليوبترا» و«ابن الإنسان» لـ إميل لودفيغ، و«الرسائل الفلسفية» و«التفاؤل» لـ فولتير، و«روح الشرائع» لـ مونتسكيو، و«حياة محمد» لـ إميل درمنغم، و«حديقة أبيقور» و«الآلهة عطاش» لـ أناتول فرانس، و«مفكرو الإسلام» و«الغزالي» و«ابن سينا» لـ البارون كرادوفو.

إلى جانب «روح الثورات والثورة الفرنسية» و«روح الجماعات» و«السنن النفسية لتطور الأمم» و«روح التربية» و«روح السياسة» و«فلسفة التاريخ» و«اليهود في تاريخ الحضارات» و«حضارة العرب» و«الآراء والمعتقدات» و«حضارة الهند» و«روح الاشتراكية» لـ غوستاف لوبون.

عادل زعيتر في بورتريه لأنس عوض (العربي الجديد)

متابعة

نُزل البحيرة تمهيدات لجريمة معمارية؟

خريف البروتاليزم في تونس

مع الإعلان عن إمكانية هدم المبنى الحداثي في تونس العاصمة، تتعالى الأصوات لمنع ذلك والبحث عن حلول لإنقاذ علامة معمارية بارزة في المدينة

تونس ـ **ليلى بن صالح**

على الرغم من «غربة» مبنى «نزل البحيرة» عن محيطه في تونس العاصمة، فقد مثّل لعقود أحد أبرز العلامات البصرية المميّزة للمدينة، وهو من الاستثناءات القليلة التي تخرج عن الوجوه المعمارية الثلاثة السائدة؛ المعمار الفرنسي الكولونيالي والعمارة العربية التراثية إلى جانب العمارات الحديثة المحيطة به.

منذ سحب البُعد الوظيفي لـ«نزل البحيرة» كفضاء سياحي مع بدايات القرن الجاري بدا حضور هذا المعلم يختفي في حياة المدينة لكنه لم يغب عن المخيّلة الجماعية، وها هو كل إعلان عن نيّة هدمه يثير من حين إلى آخر موجات من الاحتجاج من المجتمع المدني ومن المعماريين والفنانين، وهو ما حدث مجدّداً منذ أيام حين تداولت وسائل إعلام محلية نية بلدية تونس العاصمة التصريح بهدم المبنى الذي بات اليوم في ملكية شركة أجنبية.

يجد خبار الهدم مستنده في تغيّر تصوّر المنطقة التي ينتمي لها «نزل البحيرة» فالعقود الثلاثة الأخيرة قد جعلت من الشارع الذي ينتمي له المبنى؛ شارع محمد الخامس، حاضنة للبنوك والفضاءات الكبرى مثل قصر المؤتمرات ومدينة الثقافة وعدد من الجامعات، وهي مبان نفعية يبدو المعلم السياحي دخيلاً عليها، ولا يخفى هنا أن القيمة العقارية للأرض التي يحتلها المبنى قد تضاعفت بشكل لافت خلال عقود ناهيك عن أن توقّف العمل في الفندق لسنوات قد جعل من العسير إعادة استصلاح المبنى ليقوم بنفس أدواره السابقة.

من الزاوية المقابلة، يقيم المحتجّون على نيّة هدم «نزل البحيرة» حججهم على القيمة الرمزية للمبنى، من ذلك إشارة الكثير من المعماريين إلى أن فرادة المبنى لا تتأتى فقط من جماليته الهندسية وهو الذي يأتي على هيئة مركب بحري ضخم يحاذي بحيرة تونس، بل أساساً لأنه يمثّل نموذجاً نادراً في المنطقة العربية لما يعرف في تاريخ العمارة الحديثة بتيار «البروتاليزم»، والذي نجد تذبذباً في نقله كمصطلح إلى العربية فيسمّى مرة بالمدرسة الخرسانية ومرّات بالعمارة القاسية أو الوحشية.

كما تستند فئة أخرى من المحتجين إلى رمزية مبنى تعوّد عليه عين ساكنة العاصمة التونسية فهو جزء لا يتجزّأ من المشهد العمراني المميّز لمدينتهم، كما أنه يحمل بعداً فنياً اجتهادياً لا نجده إلا نادراً في الجزء الحديث من المدينة.

يُذكر أن «نزل البحيرة» قد أنشئ بين عامي 1970 و1974 تحت إشراف المهندس المعماري الإيطالي رافييلي كونتيجباني (1920 - 2008)، وكان تعبيراً عن دخول تونس في مرحلة من الرهان على السياحة، ورغم أن الدولة ذهبت بهذا الرهان إلى مدى أوسع؛ إلا أن توجيه الاستثمارات السياحية سرعان ما اتجه إلى مناطق أخرى مثل القنطاوي والحمامات وجربة وضاحية سيدي بوسعيد، حيث إن عوامل كثيرة أخذت تهجّر الاستثمار السياحي من وسط تونس العاصمة مثل الاكتظاظ المروري وترييف المدينة وصعوبة السيطرة الأمنية على مجال مختلف ذي كثافة سكانية عالية. لسنوات، كان «نزل البحيرة» يدفع فاتورة كل هذه العوامل ليجد نفسه بالتدريج معزولاً ثم مهدداً بالهدم.

> يحمل بعداً فنياً اجتهادياً يغيب عن معظم المباني التي تحاذيه

نزل البحيرة في تونس العاصمة (حاتم بوريال)

فعاليات

على خشبة مسرح **التياترو** في تونس العاصمة، تُعرَض، عند السابعة والنصف من مساء الجمعة المقبل، مسرحية **خبابل** للمخرج التونسي **ظافر غريسة**. يتناول العمل، الذي يؤدّيه كلّ من اميرة بليدي ومهران حمدي، الواقع الاجتماعي التونسي المستجدّ، ضمن مقاربة تمزج بين مسرح العبث ومسرح القسوة.

عند السابعة من مساء الإثنين، السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، يُعرض في **مكتبة الباشورة العامّة** ببيروت، فيلم **زنّار النار** (2004) للمخرج **بهيج حجيج** (الصورة). العمل مقتبس من رواية «المستبد» لرشيد الضعيف، وتدور احداثه في بيروت عام 1985، خلال الحرب الاهلية اللبنانية. يشارك في الفيلم: نداء واكيم، وحسن فرحات، وجوليا قصار.

تحت شعار **الكتاب صديقٌ مخلص**، يُنتظر ان تنطلق في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، فعاليات الدورة الثانية من **معرض السليمانية الدولي للكتاب** بمشاركة ناشرين من العراق وخارجه. أُقيمت الدورة الاولى ضمن تظاهرة «السليمانية عاصمة الثقافة في إقليم كردستان» (2019) بمشاركة قرابة 180 ناشراً.

ضمن سلسلة ندوات بعنوان **إضاءات على مُربّين مَقدسيّين** ينظمها **المتحف الفلسطيني** في بيرزيت عبر تطبيق «زوم»، تقام عند الخامسة والنصف من مساء الإثنين 16 من الشهر الجاري ندوة بعنوان «ملامح مشروع خليل السّكاكيني التّربوي والفكري الحدائي»، يتحدث فيها سليم تماري وماهر الشّريف ويعقب عليها اباهر السّقا.